المرجعيَّات الثقافيَّة في شعر
الشيخ ابن العرندس الحِلِّيّ (ت ٨٤٠هـ)

م.م. سليمان صباح منشود الكريطيّ

Cultural References in the Poetry of Sheikh Ibn Al-Arandas Al-Hilli (D. 840 A.H)

Asst. Lect. Suleiman Sabah Manshoud Al-Kuraiti

ملخَّص البحث

إنَّ مصطلحًا زئبقيًّا كالمرجعيَّات الثقافيَّة له وعليه القيل الكثير، حاولنا الوقوف على أنسب تعريف لـه، ومعالجين التسلسل الزَّمنيّ في التلقِّي الـذي حصل عليه، مرتكزين عـلى التعاطي الغربيّ والعربيّ له، متلمِّسين أصولـه في المعاجم العربيَّة القديمة، محاولين الاستقـرار على مـادَّة يمكن من خلالها أن نطبِّـق هذا المصطلح في تراثنـا الأدبيّ، وعند شـعرائنا الأفذاذ، ومن خلال هـذه الورقة البحثيَّة التي عالجنا فيهـا المرجعيَّات الثقافيَّة في شـعر ابن العرندس الحِلِّيّ(٨٤٠هـ)، نقول: إنَّ هذا التراث العربيّ بحاجة إلى استقراء جديـد، ومحاولات للتقصِّي، ومتابعـات في الجذور التأسيسيَّة للثقافـة العربيَّة، محاولين التأسيـس لثقافة كلِّ قرن من القرون، والتأسيس لثقافة كلِّ مدينة، ومن هذه المدن التي تزخر بالثقافة المتنوِّعة هي الحِلَّة الفيحاء.

الكلمات الرئيسة: الشاعر، ابن العرندس، المرجعيَّات، الثقافيَّة، الإمام الحسين عليه السلام، واقعة كربلاء، الطفّ.

Abstract

The changing term, such as (cultural references), has raised a lot of controversy. We tried to find the most appropriate definition for it and address the chronology of the reception it received, relying on the Western and Arab treatment of it, feeling its origins in ancient Arabic dictionaries, trying to settle on a material through which it can To apply this term in our literary heritage and among our distinguished poets, Through this research paper in which we dealt with the cultural references in the poetry of Ibn al-Arandas al-Hilli (840 AH), we say that this Arab heritage needs new extrapolation and attempts to investigate and follow up on the foundational roots of Arab culture, trying to establish the culture of every century, and why not establish the culture of every city. One of these cities that is rich in diverse culture is Al-Hilla Al-Fayhaa.

Keywords: (the poet, Ibn al-Arandas, cultural references, Imam Hussein, peace be upon him, the Karbala incident, al-Taf).

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضَّاد محمَّد وآله الغُرَر الميامين، وبعد:

لا يخفى على ذي لبٍّ ما يحمله شعر العلماء من أفكار ومعتقدات، يحاول بثَّها في المتلقِّي، وهذه الأفكار والقيم والمعتقدات ما هي إلَّا عصارة أفكاره ومعتقداته وما يؤمن به وما يريده، فتأتي هذه المرجعيَّات التي تحملها مخيِّلته مبثوثة في ثنايا نصوصه، وإن هؤلاء الأعلام يقصدون من إثارة هذه الأشعار لا الشفاعة ولا التقرُّب من آل البيت عليهم السلام فحسب؛ بل يحاولون ترسيخ مبادئ وقيم الناشئة على مرِّ الأجيال، هذا جزء من القصديَّة من شعر العلماء، فمن خلال بثِّه بعض النصوص المقدَّسة، والأحاديث القدسيَّة، وبعض المرجعيَّات الأدبيَّة، وتوظيف جملة من الأحداث والوقائع في قصائده، عن قصد، أو دون قصد، على مذهب القائلين بأنَّه ناظم، أو شاعر يذهب إلى عالم الخيال، مبعثرًا كلماته وراصفها من جديد، بقوالب شعريَّة.

نحن أمَام نصٍّ حوى هذه المرجعيَّات التي ألمحنا لها في هذه الورقة البحثيَّة، والتي قُسِّمت إلى تمهيد ومباحث ثلاث، عالجنا في التمهيد مفهوم المرجعيَّات الثقافيَّة، وشيء من حياة الشاعر، وفي أوَّل المباحث المرجعيَّة الدينيَّة، التي قُسِّمت إلى قرآنيَّة وحديثيَّة، وفي ثاني المباحث المرجعيَّة الأدبيَّة بشقَّيها الشِّعر والنثر، وفي ثالث المباحث المرجعيَّة التاريخيَّة، والتي عالجنا في جمل من الحوادث، وأخذت فيها حادثة الإمام الحسين عليه السلام حيزًا أكبر.

تمهيـد

إضاءات حول الشاعر ومفهوم المرجعيَّات الثقافيَّة

أوَّلًا: نبذة من حياة الشاعر

اسمه ونسبه:

هو صالح بن عبد الوهاب بـن العرندس الحِلِّيّ، عُرف بكونه فقيهًا أصوليًّا إماميًّا، فضلًا عن كونه شاعرًا عقائديًّا[١]، وعُرِف بابن العرندس، و(العرندس) الأسد الشديد، وكذلك الجمل[٢].

قالوا فيه:

وصفه الشيخ السـماويّ (١٣٧٠هـ): بالفضيلة، والعلـم، والتقوى، والمشاركة في ميادين العلم[٣].

وقال الشيخ الأمينيّ (١٣٩٠هـ): إنَّ أشعاره تُعرِب عن تضلُّعه بعلوم العربيَّة[٤].

وقال الشيخ اليعقوبيّ (١٩٦٢م): كان عالـمًا ناسكًا أديبًا شاعرًا، مصنِّفًا[٥].

(١) ينظـر: الطليعـة: ١/ ٤٢٠، أعيان الشيعـة: ٧/ ٣٧٥، الغديـر: ٧/ ١٤، البابليَّات: ١/ ١٤٤-١٤٨، شعراء الحِلَّة: ٣/ ١٢٦، أدب الطفِّ: ٤/ ١٤٤-١٤٨.

(٢) ينظر: تاج العروس: ٨/ ٣٥٨، مادة: (ع ر د س).

(٣) ينظر: الطليعة: ١/ ١٢٠.

(٤) ينظر: الغدير: ٧/ ٢٥.

(٥) ينظر: البابليات: ١/ ١٤٤.

ولادته:

لم تُحدِّد لنا المصادر تاريخ ولادته ومكانها، إلَّا أنَّها أشارت إلى ولادته في القرن الثامن الهجريّ، ومن المؤكَّد أنَّه ولِد في الحِلَّة بوصفه حِلِّيًّا، بدليل نشأته فيها، فقد كانت الحِلَّة يومذاك من أهمِّ المدن العلميَّة الشيعيَّة، فنشأ ابن العرندس في ظلِّ أجوائها العلميَّة والأدبية، ودرس في حلقاتها الدينيَّة[1].

سيرته وتراثه:

ذكرت المصادر في ترجمته إلى أنَّه ألَّف كُتبًا في الفقه والأصول، ولكن لم تُشِر إلى أيٍّ من كتبه سوى كتاب كشف اللآلئ، وهو الكتاب الذي نقل عنه السيِّد محمَّد رضا الأسترابادي الحِلِّيّ (ت ١٣٤٦هـ)، في كتابه (الصوارم الحاسمة)[2]، كما ذكر له الشيخ الطهرانيّ (ت ١٣٨٩هـ) خطبة للامام عليّ عليه السلام، ولم تُشِر المصادر إلى تاريخ أسرته سوى لقبه بـ(ابن العرندس)، ومثلما لم تُشِر مصادر ترجمته إلى سنة ولادته بالتحديد، فإنَّها لم تُشِر إلى مصادر تحصيله العلميّ، وأساتذته، وبواكير تعليمه[3].

وما يتعلَّق بشعره، فقد اقتصر ديوانه الذي صنعه له الدكتور عبَّاس الچراخ على مدح أهل البيت عليهم السلام ورثائهم، وقد جمع ما بقي منه من المجموعات المخطوطة، والمصادر المطبوعة، وبذل جهدًا في سبيل تحقيقه، وهمَّشه بشروحٍ وتعليقاتٍ وتخريجٍ للقصائد، على أنَّ ما جمعه لا يمثِّل شعر ابن العرندس كلَّه، فقد ضاع أغلب تراثه، ومثلما

(١) ينظر: أدب الطفِّ: ٤/ ٢٨٨، الغدير: ٧/ ١٤، أعيان الشيعة: ٧/ ٣٧٥، الطليعة من شعراء الشيعة: ١/ ٤٢٠، شعراء الحِلَّة: ٣/ ١٢٦.

(٢) ينظر: الذريعة: ١٥/ ٩٢ رقم ٦١٤.

(٣) ينظر: الغدير: ٧/ ١٤، أعيان الشيعة: ٧/ ٣٧٥، الطليعة من شعراء الشيعة: ١/ ٤٢٠، شعراء الحِلَّة: ٣/ ١٢٦.

ضاع شعره، ضاعت سيرته وتفاصيل حياته العلميَّة والاجتماعية؛ ويمكن عزو ذلك كلِّه إلى انتمائه الشيعيّ الذي يجعل المترجِمين ينأَون ويشيحون بوجوههم عنه، وإلى ضياع كثيرٍ من كتب التراجم، وعدم وصولها لنا، وللشاعر ديوان سقطَ من يد الزمن، انفرد بذِكره الشيخ الطهرانيّ[1].

وفاته ومدفنه:

اتُّفِق على أن مدفنه في مدينة الحِلَّة، ولكن الاختلاف بين مترجميه في سنة وفاته، فجاءت على أقوال:

الأوَّل: (٨٤٠ هـ)، وهذا ما ذهب إليه السيِّد الأمين، والشيخ السماويّ، والشيخ الطهرانيّ.

الثاني: (٩٠٠ هـ)، وهذا ما ذهب إليه الشيخ اليعقوبيّ، والسيِّد جواد شبَّر.

الثالث: ما ذهب إليه الشيخ عليّ كاشف الغطاء، إلى أن تاريخ وفاته: (٨٩٠هـ)، وهو ما نفاه الشيخ الخاقانيّ، والسيِّد هادي كمال الدين.

القول الأرجح، هو الأوَّل، وأجمعوا أنَّه توفِّي في مدينة الحِلَّة، ودُفن فيها، وقبره معروف هناك[2].

ثانيًا: المرجعيَّة الثقافيَّة بين المفهوم والمصطلح

لعلَّ الكثير من المصطلحات لا تستقرُّ أوَّل أمرها، وذلك بسبب جدَّة المفهوم،

(١) ينظر: الذريعة: ١٢/ ٢٦-٢٧.

(٢) ينظر: أعيان الشيعة: ٧/ ٣٧٥، الطليعة من شعراء الشيعة: ١/ ٤٢٠، الذريعة: ١٥/ ٩٢ رقم ٦١٤، البابليَّات: ١/ ١٤٤، أدب الطَّفِّ: ٤/ ٢٨٧، الحصون المنيعة: ٩/ ٢١٢، شعراء الحِلَّة: ٣/ ١٠٤، فقهاء الفيحاء: ٢/ ١٢.

أو تطـوُّره أو فهمه، فاللبـس الحاصل في هذا المصطلح، ونعني بـه (المرجعيَّة الثقافيَّة)، منشـأه راجع لما لقيه من تعـدُّد وتضارب في الآراء، والتي سعت إلى تقديم طرح خاص بـه، وبالنظر لما طالعناه، فإنَّ من كتب في المرجعيَّـة الثقافيَّة قد قدَّموا تنظيرات، والقليل مـن التطبيقات المرتبكة لهذا المصطلح، ولو عدنا لمفهـوم المرجع، فمن خلال المقاربات اللغويَّة في المعاجم العربيَّة والغربيَّة، وكذا البحث في ذاكرة هذا المصطلح، يمكن القول إنَّه زئبقيّ؛ كـون البحث في المعنى المعجميّ والاصطلاحـيّ لمفهوم المرجع، يكشف لنا صعوبـة وحركة هذا المصطلح، ومشقَّة الوصول إلى معنـى واحد متَّفَق عليه من طرف الباحثـين والدارسين والنقَّـاد، والمرجع من المصطلحات التي لاقـت رواجًا في العصر الحديث، وشـهدت حضورًا في مجالات عدَّة من الحياة، ممَّـا وضعه في لبس التفريق بينه وبـين مصطلـح المرجعيَّة من ناحية المفهـوم والمعاني، وعليه ستطـرح دلالته في المعاجم العربيَّة والغربيَّة.

في المعاجم العربيَّة:

إنَّ التقديم الذي قدَّمه ابن منظور في تحديد دلالة المرجع، إذ ورد في لسان العرب أنَّه: اسـم مشتق من الفعل رَجَعَ، يَرْجِعُ، رَجْعًا، ورُجوعًا، ورجْعَانا، ومَرْجِعًا، ومرجعة[1]، ضـدّ الـصرف، وفي التنزيـل ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ﴾[2]، أي الرجـوع، والمرجـع مصدر على وزن فُعْـل، وفيـه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[3]، أي رجوعكـم[4]، وجـاء المرجع أنَّه: «محـلُّ الرجـوع، والأصـل، وأسفـل الكتاب، مـا يرجع إليـه في علـم أو أدب عالم أو

(١) ينظر: لسان العرب: ٨/ ١١٤، مادَّة: (رجع).
(٢) العلق: الآية: ٨.
(٣) المائدة: الآية: ٤٨، الآية: ١٠٥.
(٤) ينظر: المعجم الوسيط: ٣٣١، مادَّة: (رجع).

كتـاب»[١]، نلحظ في كِلَا التعريفَين، أنَّ المرجـع جاء يحمل معنى الرجوع إلى الأصل في الاستناد إلى شيءٍ ما.

نحو المعاجم الغربيَّة:

وردت التعريفـات التـي ترجمها (عبد الرحمـن التمارة) عن المعاجـم الغربيَّة حول مصطلح المرجع، مفاهيم مقابلة لما ورد في المعاجم العربيَّة.

في معجـم (Le Robett) يصاحـب المصطلـح دلالات، نذكـر منها: فعـل وأداة للإجابة وللتحديد، بالنظر إلى شيء ما، وشهادة أشخاص، يمكن أن نعود إليهم، لجمع معلومات حول شخصٍ ما[٢]، وورد في معجم آخر أنَّه: المكان الخارجي الَّذي يمكن أن يُحال عليه شيءٍ ما[٣].

كِلَا التعريفَين يحيلان إلى معنى الرجوع إلى أرضيَّة واقعيَّة، موجودة وموصل لها في الحياة، سواء أكانت معلومات، أو إطار خارجيّ له وجوده الفعليّ واقعيًّا.

مزاوجة في الاصطلاح:

يعود مصطلح المرجع في أصله إلى اللغة الإنجليزيَّة (Referent)؛ لينتقل بعدها إلى اللغة الفرنسيَّة في العشرينيَّات من القرن التاسع عشر.

ورد هـذا المصطلح عند كلٍّ من روبير لافون (Rober Lavon)، وفرانسوا مادري (Francoise Madri)، أنَّه يتكوَّن من «محدَّدين أساسيَّين، الأوَّل نصيٍّ ذو طبيعة لسانيَّة، وهو الذي يرتبط (باعتبار السياق)، بالتناص، كنسيج لعلاقات عمليَّة الكتابة والقراءة،

(١) المعجم الوسيط: ٣٣١، مادَّة: (رجع).
(٢) ينظر: مرجعيَّات بناء النصِّ الروائيّ: ٣٠.
(٣) ينظر: انفتاح النصِّ الروائيّ: ٢٤-٢٥.

أمَّا الثاني مقاميّ، له طبيعة خارج لسانيَّة.. يبدو في العلاقات القائمة بين الإنسان والواقع، من خلال اللُّغة»[1].

كما عُدَّ المرجع موضوعًا من مواضيع العالم الحقيقيّ، التي تشير إليها كلمات اللُّغة الحيَّة، تبدو كلمة موضوع غير كافية؛ ذلك أنَّ المرجع يغطِّي الأوصاف والأفعال والأحداث الحقيقيَّة، محصورًا ؛ لأنَّ المرجع يشتمل على العالم الخياليّ[2].

بين المرجعيَّة والمرجِع

نجد هنا أنفسنا أمام إشكاليَّة انتخاب مفهوم محدَّد لكِلَا المصطلَحَين؛ نظرًا للتعدُّد بحكم تباين صيغتهما الاشتقاقيَّتَين من الجذر، «التصوُّرات النظريَّة التي قُدِّمت لكلٍّ منهما واللغوي ر.ج.ع»[3].

وللتمييز بينهما، حيث يغتدي كلٌّ منهما «مفهومًا قائما بذاته، من أجل ذلك نجد بعض المنظِّرين يستغني عن المرجعيَّة، ويجزئ بالمرجع، غير أنَّ عامَّة المنظِّرين السيميائيِّين يجنحون بالمصطلَحَين الاثنين، إلَّا أنَّ كلًّا منهما يمثِّل مفهومًا قائمًا بنفسه[4].

يرى بول ريكور (Paul Ricueur) أنَّ مرجعية النصِّ ترتبط بالقارئ، إذ إنَّ «النص لا يُحيل على شيء سوى ذاته، ولا حقيقة له خارج الإطار العلاميّ الذي ينتظمه ويشكِّل مرجعيَّته»[5].

فريكور هنا يربط مرجعيَّة النصِّ بالقارئ الذي له دور فكِّ شفرات النصِّ الأدبيّ،

(١) مرجعيَّات بناء النصِّ الروائيّ: ٣٠، نقلًا عن معجم (Rober Lavon).
(٢) ينظر: النصُّ الروائي: ٢٤-٢٥.
(٣) قاموس مصطلحات التحليل السيميائيّ للنصوص: ١٥٢-١٥٣.
(٤) نظرية النصِّ الأدبيّ: ٥٥.
(٥) مقوِّمات السيرة الذاتيَّة في الأدب العربيّ الحديث (بحث في المرجعيَّات): ٥٥.

مُعِدًّا هذا الأخير شحنة دلاليَّة، والقارئ مَن يحدِّد دلالته التي تشكَّلت «رواسب تراثيَّة قابلة للاستعارة في كلِّ زمانٍ ومكان.. إنَّه يظلُّ إنتاجًا وليد حقب متواصلة ومتعاقبة من التطوُّر، وهو في صيرورته هاته يعكس سياقات خاصَّة، تفاعل معها الإنسان بأشكال متفاوتة ومتعدِّدة، ويفترض هذا أن يتعامل معه في ضوء تلك الصيرورات، وما تمثِّله من امتداد وانقطاع؛ أي تنظر إليه باعتباره كُلًّا متكاملًا»[1]، يُسهم في تعاضد المرجعيَّات في النصوص الأدبيَّة وحضورها.

فالمرجعيَّة إذن «تعتمد على قبول المرجع والإيمان بشرعيَّته، وإن كان هذا القبول يفترض توسيع سعته وتمديدها، فإذا كانت سمة الواقعيَّة والتجريبيَّة لصيقة بالمرجع، فإنَّ المرجعيَّة تظلُّ مجالًا أقرب إلى الجمع والتوفيق بين العالم التجريبيّ والواقعيّ، والعالم التجريبيّ المتخيَّل»[2]؛ لتصبح المرجعيَّة، استنادًا إلى هذا، تمثل «العلاقة بين العلامة اللسانيَّة والمرجع، أو الشيء الخارجيّ»[3].

والمقصود به هنا العالم التجريبيّ ببُعدَيه الواقعيّ والمتخيَّل، انطلاقا من النصِّ الخارجيّ، بوصفه علامة لسانيَّة، والقارئ كونه مرجعًا خارجيًّا، تُرجع إليه هذه العلامة اللسانيَّة.

من خلال هذا نخلص إلى أنَّ «المرجعيَّة هي العالم الذي يحيل إليه ملفوظ لغويّ، علامة منفردة كانت أم تعبيرًا مركَّبًا، ويكون ذلك العالم إمَّا واقعيًّا موجودًا حاضرًا، وإمَّا متخيَّلًا لا يطابق أي واقع خارج التعبير اللغويّ، وهذا يستلزم بالضرورة من يُدرِك ذلك العالم أو يتمثَّله، ثمَّ يُنتِج الدلالات التي يمكن أن يُعبِّر عنها العالم المرجعيّ

(١) المتخيَّل الروائيّ (سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا): ١٧١.
(٢) مرجعيَّات النصِّ الروائيّ: ٥٢.
(٣) المتخيَّل الروائيّ (سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا): ١٧١.

المعروض في التعبير»[1].

فالنصُّ الأدبيّ «يعتبر نسيجًا مركَّبًا من مفهوم المرجع، بخلفيَّته المعجميَّة واللِّسانيَّة، منطلقًا أوَّليًّا لمقاربة المرجعيَّة في تجلِّيها النصِّيّ الشاسع والمركب باعتبار الجزء مقضيًا لكشف الكلِّ، وذلك بالتأكيد على أنَّ كلَّ نصٍّ يبني مرجعيَّته النصيَّة الخاصَّة[2].

فالاحتكام إذن للمفهومَين المعجميّ والاصطلاحيّ، يكشف تلك الدلالات ذات الأهميَّة في استكشاف الجذور المعرفيَّة التي كوَّنت النصَّ، ممَّا يسمح «برصد خصوصيَّات المرجع، وضبط مساره المعرفيّ الممتدُّ والشاسع؛ لكونه مفهومًا مؤسِّسًا لخطابات معرفيَّة متنوِّعة»[3].

فهو عصر مهم يضبط السياقات التواصليَّة التفاعليَّة العامَّة؛ لأنَّه يشير إلى سياقات خارجيَّة وداخليَّة، ساعدت في تأطير مفهوم وماهيَّة هذا النصِّ الأدبيّ وخطابه المعرفيّ.

سنقف عند مفهوم هذا المنهج، وكيف أنَّ له دورًا بارزًا في تحديد آليات ومبادئ المرجعيَّات الثقافيَّة التي تُبنى عليها النصوص الأدبيَّة في كثير من الأحيان، هذا إذا نظرنا للنصِّ على أنَّه بنية ثقافيَّة تكتنز العديد من الأنساق التي من شأنها أن تكشف لنا عن تفكير أمَّة وعاداتها وتقاليدها وإيديولوجيَّتها في مختلف المجالات، خصوصًا وأنَّ أغلب الدراسات تذهب بالقول على أنَّ النصَّ عبارة عن مجموعة من الشحنات الدلاليَّة التي ينبغي فكَّ شفراتها.

(١) ينظر: مرجعيَّات النصِّ الروائيّ: ٥٢.
(٢) ينظر: م.ن: ٥٣.
(٣) ينظر: م.ن: ٢٧.

ذاكرة المصطلح مفهوم الثقافة

إنَّ الوصول إلى مصطلح محـدَّد للثقافة ليس بالأمر الهيِّن؛ نظرًا لاختلاف وجهات النظـر المطروحة فيها، كما يرجع ذلك إلى التبايـن في الحضارات، منسحبًا بعد ذلك على تبايـن الثـراء المعرفيّ، واختلاف التجـارب، وعليه قبل الخوض في غـماره، والبحث في مكنوناته، نتطرَّق إلى المفهوم اللغويّ، ومن ثمَّ الاصطلاحيّ.

أ. لغة: مقاربة معجميَّة

ورد في لسـان العرب أنَّ الثقافة من الجذر اللغويّ (ث ق ف)، «وثقف الشيء ثَقْفًا وثِقافًا، وثُقُوفة، حَذَقه، ورَجُل ثَقْفٌ، وَثَقِفٌ، وثَقُفٌ، حاذق فهم، وأبتعوه فقالوا: ثَقْفٌ لَقْفٌ.. ويقال ثقِف الشيء، وهو سرعة التعلم، ثقفت الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت به.. وثقفَ الرجل ثقافة؛ أي صار حاذقًا خفيفًا، مثل ضخم، فهو ضَخْم، ومنه المثقافة، وثقف أيضًا ثَقَفًا مثل تَعب تَعَبًا؛ أي صار حاذقًا فطنًا، وثَقُف الخلُّ، ثقافة، وثقِف، فهو ثقيف، وثقّيف بالتشديد الأخيرة على النسب.. وثَقِفَ الرجلَ ظفرَ به، وثَقِفْتُه ثَقْفًا مثال بلِعْتُه بَلْعًا؛ أي صادفتُه»[1].

ب. اصطلاحًا: المرجعيَّات الثقافيَّة

إنَّ التمهيد بالإطلالة على مصطلـح المرجعيَّات الثقافيَّة، ومفهومها هدفه الوقوف عـلى دلالته، والموضوعات التي تنـدرج تحته، وإزالة اللبس عنها؛ نظـرًا لتعدُّد الرؤى، وتضـارب المنظِّريـن في تحديد مساراتها، بغيـة الوصول إلى رؤية محـدَّدة تسير بالبحث، وتأخذ بيده في طريقه الصحيح.

ففي السياق الموروث، لاسيـما في بعده الدينيّ والمعجميّ، لا نجد حضورًا لمفردَتي

(١) لسان العرب: ٣/ ١، مادَّة: (ف ق ف).

المرجعيَّـة والمرجعيَّـات، إذ إنَّهما مفردَتان حديثَتان، فلم يـرد لهما ذكر في كتاب الله تعالى، لكنَّ الفعل رجع ومشتقاته تتكرَّر في القرآن الكريم مئة وأربع مرَّات[1].

وكانـت جلُّ معانيه الواردة تشـير إلى العودة إلى الأصل والمآل، أمَّا من ناحية البُعد المعجمـيّ، فإنَّ المعجـمات القديمة لم تتداولـه، فلم ترد فيها مفـردة المرجعيَّة، والصيغة الجمـع منها، لكنَّها خاضت في جذر الكلمة ومشتقَّاتها، فصاحب العين ذكر أنَّ «المآب: المرْجِع»[2].

والمرجع مصـدر ميميّ، واسم مكان أو زمان، بحسب سيـاق الجملة الوارد فيها، والعـرب «بَنَـو المصدر على المفعـل، كما بنو المكـان عليه.. وذلك قولـك: المرجع، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾[3]، أي مرجعكم»[4].

وقـد ذكر الجوهريّ المرجـعُ في الآية المتقدِّمـة أيضًا، وإشـارة إلى أنَّ مجيئه على زنة مفعل شـاذٌّ؛ لأنَّ المصادر من فَعَـلَ يَفْعِلُ، إنَّما تكون بالفتـح[5]، فالمرجعيَّة والمرجعيَّات يمتَّـان للقرآن والمعجمات العربيَّة بوشـائج متينة في غير لفظهما، بـل بالمعاني والمضامين التي تندرج تحت المصطلحات.

والثقافـة: هـي السـمات المميِّـزة لإحـدى مراحـل التقـدُّم في حضـارة مـن الحضـارات، وتلمـس فيهـا رقـيّ العقـل والأخـلاق والـذوق السليـم في الأدب والفنـون الجميلـة، وهي رياضة الملكـات البشريَّة، بحيـث تصبح أفضل وأتـمُّ نشاطًا

(١) ينظر: آفاق الأدب المقارن عربيًّا وعالميًّا: ١٣.
(٢) ينظر: العين: ٨/ ٤١٧.
(٣) الأنعام: ٦٠.
(٤) الكتاب: ٤/ ٨٨.
(٥) ينظر: الصِّحاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة: ٣/ ١٢١٦.

واستعدادًا للإنجاز[١].

وتعرَّف أيضًا بأنَّها «الوحدة الكاملة للسلوك المتعلَّم الذي ينتقل من جيل إلى الذي يليه.. أو هي نمط من التقليد أو العُرف، حيث تنتقل الرموز من جيلٍ واحد إلى الجيل التالي»[٢].

فالمرجعيَّات الثقافية في حلَّتها تكون متباينة، فمنها السياسيَّة والدينيَّة والتاريخيَّة والفلسفيَّة وغيرها، لذا فهي في النظريَّة النقديَّة هي الخلفيَّات المعرفيَّة والمنابع الفلسفيَّة التي ينبغي أن تتوفَّر في الناقد أو الباحث عن طريق دراسة عمل أدبيّ إبداعيّ[٣].

نلحظ ممَّا تقدم أنَّ الدارسين انطلقوا في صياغة المصطلح من مدلوله الدينيّ المعجميّ، للوصول إلى رؤية تفضي إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح حول ذلك المصطلح، لكنَّهم قنعوا بالخوض في ركنَي المصطلح (المرجع والثقافة)، كلًّا على حِدة، فكثرت الرؤى والطروحات حول مفهومه، وما يندرج فيه.

ويمكن لنا أن نسير مع الرؤية التي تعدُّ المرجعيَّات الثقافية مجموع الخلفيَّات والأبعاد المعرفيَّة والفكريَّة والثقافيَّة التي ينطوي تحتها الخطاب الأدبيّ، وعادةً ما تكشف لنا هذه الخلفيَّات والأبعاد، عن إيديولوجيا وثقافة أمَّة من الأمم في العالم، أو مجتمع من المجتمعات.. تكشف عن عاداتهم، تقاليدهم، لغتهم، تفكيرهم، وغير ذلك؛ فحديث المرجعيَّات هو حديث ربط الأسباب بمسبِّباتها، وإحالتها إلى أصولها، ويمكن للمرجعيَّات الثقافيَّة أن تكون مصطلحًا.

(١) ينظر: معجم المصطلحات العربيَّة في اللغة والأدب: ٧٦.
(٢) ينظر: الشامل قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعيَّة: ١٣٧.
(٣) يُنظر: المرجعيَّات الثقافيَّة في ديوان بهاء الدين زهير، حمزة فليشي وعبد الحق روبي، رسالة ماجستير، جامعة محمَّد خيضر بسكرة، كليَّة الآداب واللغات، ٢٠١٩-٢٠٢٠: ١٤.

المبحث الأوَّل

المرجعيَّات الدينيَّة (القرآن الكريم / الحديث النبويّ)

تُقسَّم المرجعيَّات الدينيَّة على قرآنيَّة، وحديثيَّة، والتي تضمُّ حديث النبيّ ﷺ.

أ. مرجعيَّة قرآنيَّة

مـن جماليَّات التصوير الفنِّيّ، حـين يوظِّف الشاعر حادثة معيَّنـة، مرتكزًا فيها إلى آيات القرآن الكريم، وممَّا قاله شاعرنا ابن العرندس، قوله[1]: (من الطويل)

إمـامٌ أتـى في (هـل أتـى)[2] ذكـرُ فضله
وجـاءت بـه طـه ويـاسـين والـنـملُ

فهنا يرتكز شاعرنا لقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾، ومن ثمَّ يذكِّر بعظمة هذا الإمام، وما السور التي بلَّغت بفضله ومنزلته.

وقوله[3]: (من الطويل)

فـمـن نـاصـبـيّ ظـلَّ لـلَّات عـابـدًا
ومـن سـامـريّ[4] قـد أظـلَّ بـه العـجلُ

(١) الديوان: ١١٢.
(٢) قولـه تعـالى، أوَّل سـورة الإنسـان: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ الإنسان: (١)
(٣) الديوان: ١١٣.
(٤) إشـارة لقصَّة السامري مع قوم نبي الله موسى، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ

ومن قوله في إفاده من قصة داوود عليه السلام، وكيف سخَّر الله له الحديد، وما يصنعه من الحديد، والسرد نوع من الدروع المتداخلة الحلقات بعضها ببعض[١]: (من الكامل)

لا تحسبوا داود قدَّر سَردهُ[٢]
في سين سالفه فَبات مُسرَّدَا

ومن قوله مستثمرًا قصة النبي نوح عليه السلام، وأمر الطوفان[٣]: (من الطويل)

ونوحٌ بهم في الفلك لمَّا دعا نجا
وغيض به طُوفانهُ، وقضى الأمرُ[٤]

من توظيفه القصص القرآنيّ قصَّة أخرى، وهي قصة نبيّ الله إبراهيم عليه السلام حين رموه بالنار، وكذلك قصَّة نبيّ الله يعقوب، وحزنه على يوسف عليهما السلام، وكذا قصَّة نبيّ الله أيُّوب حين لحقه الضُّرُّ، وكذلك معجزة نبيّ الله داوود، حين لان له الحديد، فقال الشاعر[٥]: (من الطويل)

ولولاهم نار الخليل لما غدت
سلامًا وبردًا، وانطفى ذلك الجمرُ[٦]

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ طه: ٨٥.

(١) الديوان: ٥٧.

(٢) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ سبأ: ١١.

(٣) الديوان: ٨٦.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هود: ٤٤.

(٥) الديوان: ٨٦.

(٦) إشارة لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الأنبياء: ٦٩.

ولــولاهــمُ يـعـقـوب مـا زال حُـزنـه[1]

ولا كـان عـن أيـوبَ ينكشفُ الضُّــرُّ[2]

ولان لـــــداوودَ الحـديـدُ بسـرِّهـــــم

فـقـدَّرَ فـي سردٍ يحيرُ لـــه الفكرُ[3]

ومـن قوله، مرتكزًا لقصَّة تسخير الريح لنبـيِّ الله سليمان عليه السلام وكيف أسيل له عين قطر[4]: (من الطويل)

ولـــــمَّا سـلـيـمان الـبـســاطُ بـه سرى

أسيلت لـه عـينٌ يـفـيـضُ بهـا الـقـطـرُ[5]

ومن مرتكزات شاعرنا إلى قصص القرآن الكريم، وكيفيَّة توظيف معجزة موسى، العصا وما حدث مع السحرة، بقوله[6]: (من الطويل)

وهـم سرُّ مـوسى، والعصا عند من عصا

أوامـــره فـرعـون، والـتـقـف الـسِّـحـرُ[7]

(١) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ يوسف: ٨٤.

(٢) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الأنبياء: ٨٣.

(٣) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ سبأ: ١٠-١١.

(٤) الديوان: ٨٦.

(٥) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ﴾ سبأ: ١٢.

(٦) الديوان: ٨٧.

(٧) إشارة لقوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩.

ب. مرجعيَّة حديثيَّة

لعلَّ ارتكاز شاعر ما إلى حديث النبيِّ الأكرمﷺ يدلِّل بصورة واضحة على الثقافة الدينيَّة له، وما يحمله من مطالعة وتمعُّن وتفقُّه في الدين، وممَّا رُصِد بصورة واضحة ويوجد غيره، أنَّ الشاعر قد استقى جملة من معانيه وألفاظه من الحديث النبويِّ الشريف، ومنها[1]: (من الطويل)

وهم سرُّ مُوسى، والعصا عند من عصا
أوَامره فرعونُ، والتقف السَّحرُ[2]

وله أيضًا، معرِّجًا على حديثٍ نبويٍّ شريف، في الدعاء تحت قبَّة الإمام الحسينعليه السلام، وكيفيَّة الشفاء في تربة سبط النبيّ، عليهم وآلهما ألف تحية وسلام[3]: (من الطويل)

له تربة فيها الشفاء[4]، وقبَّة
يجاب بها الداعي إذا مسه الضُّرُّ

وله في الإمام الحسينعليه السلام، وأنَّ أباه عليّ بن أبي طالبعليه السلام كيف يسقي الناس ومحبِّيه من حوض الكوثر، فقال[5]: (من الطويل)

(١) الديوان: ٨٧.
(٢) إشارة لقولهﷺ: «إنَّ موسى لمَّا ألقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة، قال: اللهمَّ إنِّي أسألك بحقِّ محمَّد وآل محمَّد لما أمنتني. فقال له الله عزَّ وجلَّ ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ طه: ٦٨». ينظر: الاحتجاج: ١/ ٥٥، وسائل الشيعة: ٧/ ١٠٠، ح٦، بحار الأنوار: ٢٦/ ٣١٩.
(٣) الديوان: ٧٧.
(٤) إشارة لقولهﷺ: «إنَّ الله تعالى عوَّض الحسينعليه السلام من قتله أن جعل الإمامة في ذريَّته، والشفاء في تربته، وإجابة الدعاء عند قبره..». ينظر: وسائل الشيعة: ١٤/ ٤٢٣، ح٣٤، بحار الأنوار: ٤٤/ ٢٢١.
(٥) الديوان: ٧٧.

ووالـــده الـساقي عـلى الحـوض في غـد[1]

وفـاطـمـة مـــاء الـــفـــرات لهـــا مـهـرُ

(١) إشـارة لقولـه ﷺ: «أنت أمامي يوم القيامة، فيدفع إليَّ لواء الحمـد، فأدفعه إليك، وأنت تذود الناس عن حوضي». ينظر: كنز العمَّال: ٦/ ٤٠٠.

المبحث الثاني

المرجعيات الأدبيَّة

تقسَّم المرجعيَّة الأدبيَّة، إلى شعر ونثر، ولعلَّ ممَّا يبرز شخصيَّة معيَّنة في ميدان، ما هو ما تلفظه من مفردات ومرجعيَّات تعطي انطباعًا عمَّا طالعه المتكلِّم- الشاعر، ويبرز عندنا في شعر شاعرنا، فيما ذكره من أبيات وشخصيَّات لشعراء سبقوه.

أ. المرجعيَّة الشعريَّة

استعمل شاعرنا مضمِّنا صدر بيت للشيخ علاء الدين الشفيهينيّ، بقوله[1]: (من الكامل)

وسمت قلوب حواسدي، وسمت على
(نمَّ العذارُ بعارضيه وسَلْسلَا)

من قصيدة طويلة للشفهينيّ الحِلِّيّ، مطلعها[2]: (من الكامل)

نمَّ العذارُ بعارضيه وسَلْسلا
وتضمَّنت تلك المراشف سلسلا

وفي هذا البيت ضمَّن صدر بيت للخليعيّ[3]: (من الكامل)

(١) الديوان: ١٠٩.
(٢) الطليعة: ١/ ٢٧.
(٣) الديوان: ١٠٩.

وعلت بمدحك يا عليُّ، ووازنت

(لم أبك ربعًا للأحبة قد خَلا)

من قصيدة طويلة للخليعيّ في رثاء الإمام الحسين عليه السلام مطلعها[1]: (من الكامل)

لم أبك ربعًا للأحبة قد خَلا

وعفا وغيره الجديد وأمحلا

وما أفاده من بيت أبي تمّام المشهور:

تردى ثياب الموت حمرًا، فما أتى

له الليل إلَّا وهي من سندسٍ خضرِ

إذ قال موظِّفًا بعض المعاني[2]: (من الطويل)

ملابسهُ في الحرب حمرٌ من الدِّما

وهنَّ غداة الحشر من سندسٍ خُضْرُ

وقوله[3]: (من الكامل)

نسبٌ كَمنبلجِ الصَّباح يزينهُ

حسبٌ شبيهُ الشمس زاهي المجتلى

أفاد المعنى من قول أبي تمّام:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضحى

نورًا، ومِن فلقِ الصَّباح عمودا

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٢٥٨.

(٢) الديوان: ٨١.

(٣) الديوان: ٩٤.

وما أخذه من عجز بيت للفرزدق، الذي يقول:

هـــذا ابـــن خـــير عـــبـــاد الله كـــلـــهـــمُ

هـــذا الـتـــقـــيّ الـنـــقـــيّ الـطـاهـر الـعـلـمُ

قوله[1]: (من الطويل)

هـو ابـن الإمـــام الـعـسـكـريّ محـمَّـد الت

ـقـيّ الـنـقـيّ الـطـاهـر الـعـلـم الحـبرُ

فقد أخذ (التقي، النقي، الطاهر، العلم).

أمَّا قوله[2]: (من الكامل)

فـــكـــــأنَّه وجـــــواده وحسامـــه

يـــــا صـاحـبـيّ لمـن أراد تمثّلا

شـمـسٌ عـلى الـفـلـك المـــدار بكفِّه

قـمـرٌ مـنـازلـه الجـمـاجـم والـطّـلى

قد أخذه من قول الشفيهينيّ الحليّ[3]:

فـكـــــأنـه وجـــــواده وسـنـانـهُ

وحـسـامـه، والـنـقـع داجٍ أسـودُ

قـمـرٌ عـلى فـلـكٍ وراء مـذنّـبٍ

وأمـامـه فـــي جـنـح لـيـلٍ فـرقَـدُ

(١) الديوان: ٨٤.

(٢) الديوان: ٩٨-٩٩.

(٣) الغدير: ٦/ ٣٦٢.

ب. المرجعيَّة النثريَّة

لم نعثر له على مرجعيَّات نثريَّة، سوى ما أورده عن قس بن ساعدة الإيادي، إذ قال[1]: (من الكامل)

عُرُبًا فصاحًا في الفصاحة جاوزت
قسًّا[2] وبات لها لبيدُ مُبلَّدَا

(١) الديوان: ٦٥.

(٢) قس: هو قس بن ساعدة الإياديّ، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهليَّة. ينظر: معجم الشعراء: ١/ ٢٧٨ وينظر: الأعلام: ٥/ ١٩٦.

المبحث الثالث

المرجعيَّات التاريخيَّة

إنَّ لفظة التاريخيَّة تشير بما لا يقبل الشكَّ إلى (الشخصيَّات، الحوادث، الأماكن، وغيرها)، وهذه الميزة عدَّت مصدرًا بارزًا للتوصيف في شعر شاعرنا، وقد ركَّز في مرجعيَّات بذات الخصوص حول كربلاء، وما دار بها، وكذلك وظَّف حوادث وشخصيَّات تاريخيَّة، سنحاول نذكر نماذج من مصادره.

قوله في قساوة قلوب أعداء آل بيت النبوَّة، فصوِّر لنا شدَّة معاناة أهل البيت عليهم السلام على رمضاء كربلاء، هذه الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا كلأ، فأشار الشاعر إلى عظم المصيبة، وعطش الإمام الحسين عليه السلام ضمنًا، كاشفًا بذلك القناع عن حقيقة السلطة الأمويَّة المعادية للإسلام، وقساوة قلوب جلاوزة يزيد (لعنه الله) الكفرة الفَجَرة[1]: (من الكامل)

لم أنسه في كربلا متلظّيًا
في الكرب لا يلقي لماءٍ موردا
والمقنب الأمويُّ حول خبائه النـ
ـنبويِّ قد ملأ الفلاة الفُدفدا

وفي جانب آخر من القصيدة، يُصَوِّر الشاعر لنا أيضًا هذا المشهد المؤلم، وهول

(١) الديوان: ٥٨.

المصـاب بصورة أخرى، منددًا بالأمويِّين، و مشيرًا إلى الشدائد والنكبات التي تعرَّض لهـا آل البيـت الأطهار (عليهم ألف تحيَّـة وسلام) في معركة الطَّـفِّ الدامية على أيدي أناسٍ يزعمون أنَّهم مسلمون، فإنَّ جلاوزة يزيد (لعنه الله) حالوا بين الإمام الحسين عليه السلام، وأصحابه النجباء، وبين الماء، ومنعوهم أن يستسقوا منه قطرة[1]: (من الكامل)

ومِـــن الـعـجـائـب أنَّ عـــذب فـراتـهـا
تـــسري مُـسـلـسـلـةً ولـــن تـتـقـيَّـدا
طـــام وقـلـــب الـسـبـط ظـــامٍ نـحـوه
وأبـــوه يـسـقـي الـنـاس سـلـسـلـه غـدا

وشـاعرنا من خـلال استعماله لمفردة (قلـب ظامٍ) و(متلظيًـا)، أراد أن يبين حجم الظلم والألم.

وكـرَّرَ الشاعـر تصوير الروائع مـن هذه البطـولات الملحميَّة في قصيـدة أخرى، قائلا[2]: (من الكامل)

فَـقَـامَ الـفَـتَـى لـــمَّا تَـشَـاجَـرتْ الـقَـنَـا
وَصَـــالَ وَ قَـدْ أَودَى بـمُـهـجَـتِهِ الْحُـرُّ
...
فَـفَـرَّقَ جَمـعُ الـقَـومِ حـتَّـى كَـأَنَّهُـمُ
طُـيُـورُ بِـغَـاثٍ شَـتَّ شَـمـلُـهُـمْ الصَّـقـرُ

شيَّد الشاعر هنا على ما بذله الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه من أجل مكافحة الطغاة وجبابـرة الدهر، فإنَّ الإمام عليه السلام وأصحابه الكرام أَبَوا الذلَّ والهوان والحياة مع الظالمين،

(١) الديوان: ٦٠-٦١.
(٢) م.ن: ٧٩.

وكانـوا مستعدِّين بأن يضحُّوا بكلِّ ما لديهـم، فتمكَّنوا من إرضاخ العدو أمام مطالبهم وغاياتهم، وكسبوا الحياة الخالدة، من خلال انتصار الدَّم على السيف.

ومـن ثـمَّ يصَوِّرَ شـاعرنا القـومَ الَّذيـن في جبهة الباطـل، بصورة طُيُـور صغيرة ضعيفة، ومـن هنا نرى بأنَّ الشاعر من خلال استخدامه لهـذا التشبية، أعطى لقصيدته روعـة الجمال وطابع الابتكار، وقـد أنشد الشاعر مرَّةً أخرى في هـذا المضمار، قائلا[1]: (من الكامل)

والخـيـــلُ محـدقـــةٌ بـجـيـم جمـالـه
وقـلـوبهـم في الـغـلي تحـكـي المـرجـلا
والـسـبـط يخـتـرق المـواكـب حـامـلا
بـعـزيـمـةٍ تـــردي الخـمـيـس الجحـفـلا

كـرَّرَ الشاعـر لنـا في غديريَّته تصوير بسالـة الإمام الحسين عليه السلام وشـجاعته في هذه الملحمـة البطوليَّة، وهو يحصد رؤوس الأعداء، ولا يخشى الموت، فعبست وجوه القوم خوف الموت؛ لأنَّهم أشرفوا على الهلاك.

وقـد تحـدَّث شـاعرنا عـن وقائـع معركـة الطَّـفِّ، وعلـى أبعـاد هـذه المأسـاة الإنسانيَّـة التي لم يعرف لهـا التاريخ مثيلًا، فكـان الجميع في يوم عاشـوراء حزينًا على مصـاب الحسـين عليه السلام، و لقـد ناحـت وبكت كـلُّ أمـلاك السـماء، وكانـت الوحوش المفترسـة والطيـور أيضًـا تبكـي وترثـي الحسـين عليه السلام، وذلـك لمـا جـرى علـى أهـل البيـت عليهم السلام مـن شـدائد ومِحَن شـاقَّة، ومصائـب جسيمة في ساحـة الوغى، فقـال[2]: (من الكامل)

(١) الديوان: ٩٩.
(٢) م.ن: ٦٢-٦٣.

فبكته أملاك السَّماوات العلى
و الدهر بات عليه مشقوق الرِّدا
وارتدَّ كفُّ الجود مكفوفًا و طر
ف العلم مطروفًا عليه أرمدا
والوحش صاح لما عراه من الأسى
و الطيرُ ناحَ على عزاه و عدَّدا

كما أنشد مرَّةً أخرى في هذا الحقل، قائلا[1]: (من الطويل)

إِمَامٌ بَكَتهُ الإِنسُ وَ الجِنُ وَالسَّما
وَوَحشُ الفَلَا وَالطَيرُ وَالبَرُ وَالبَحرُ

ومن هنا نرى بأنَّ الشاعر ابن العرندس استعار اللفظ الدال على المشبَّه به للمشبَّه، ثمَّ حَذَفَ المشبَّه، وأشار إليه بشيء من لوازمه، وهو البكاء، والتشقيق، والصياح، وتعديد المناقب والفضائل على طريق الاستعارة بالكناية، ممَّا يملأُ فُؤادَ المتلقِّي ألمًا وحزنًا، وإثبات ذلك الأمر للمشبَّه استعارة تخييليَّة.

وممَّا يذكره لنا الشاعر أيضًا في مشهد آخر من المشاهد المأساويَّة والصور المؤلمة، وهو عندما أصبح الرأس الشريف بين يدي يزيد (لعنه الله)، فأخذ الأخير القضيب، وجعل ينكت ثنايا الحسين عليه السلام[2]: (من الكامل)

أَيقرَعُ جَهلًا ثَغرُ سِبطِ مُحَمدٍ
وَصَاحِبُ ذَاكَ الثَغرِ يُحمَى بِهِ الثَّغرُ

وممَّا يجدر ذِكره هنا، هو أنَّ الشاعر استخدم الجناس التام في هذا البيت، فالمراد

(١) الديوان: ٧٦.
(٢) م.ن: ٨٣.

بالثغرِ الأوَّل والثَّاني إحدى الأسنان الأربع التي تقع في مقدَّمة الفم، وبالثغرِ الثالث الحدود الجغرافيَّة.

ومن رسمه بريشة الإبداع صور آل بيت الرسول (صلوات الله وسلامه عليهم)، وتوظيفه عدَّة مشاهد وأحداث فادحة ومؤلمة بعد معركة الطَّفِّ الدامية، وسيرهم بالسبايا، وبالإمام السجَّاد عليه السلام، قوله[1]: (من الكامل)

وسروا بزين العابدين السَّاجد الـ
ـباكي الحزين مُقيَّدا ومُصفَّدا
وسكينةٌ سكن الأسى في قلبها
فغدا بضامرها مُقيمًا مُقعدا
وأسال قتل الطَّفِّ مدمع زينب
فجرى ووسط الخدِّ منها خدَّدا

وأيضًا يتكلَّم الشاعر في البيت الثالث عن فظاعة ما أصاب السيِّدة العقيلة زينب عليها السلام، مصوِّرًا قساوة أعداء الإسلام في كربلاء.

وممَّا يرسم ذات المعنى، قوله[2]: (من الطويل)

وَلَهَفِيْ لِزَين العَابِدينَ وَ قَد سَرَى
أَسِيرًا عَلِيْلًا لا يُفَكُّ لَهُ أَسرُ
وآلُ رَسُولِ الله تُسبَى نِسَاؤهُمْ
وَمِنْ حَولِهِنَّ السِّترُ يُهتَكُ وَالخِدرُ

(١) الديوان: ٦٣.
(٢) م.ن: ٨١-٨٢.

الخاتمة

توصَّلت الدراسة لاستنتاجات عدَّة، أبرزها:

١. إنَّ المرجعيَّات الثقافيَّة من المصطلحات التي وردت حديثًا، والتي حصل فيها الكثير من الأخذ والردِّ، والتي استقرَّت في الدراسات الأدبيَّة، والتي قامت عليها الكثير من الدراسات.

٢. إنَّ شعر ابن العرندس الحِلِّيّ، شعر مليء بعواطف الحبِّ والولاء لآل البيت صلوات الله عليهم.

٣. إنَّ محتوى الشاعر، بعد أن عرضنا له في هذه الدراسة، يزخر بثقافة دينيَّة وأدبيَّة وتاريخيَّة كبيرة، ظهرت هذه الثقافة بشكلٍ جليٍّ في نصوصه المبثوثة في الديوان.

٤. كان هناك توازن في مرجعيَّاته الدينيَّة والأدبيَّة والتاريخيَّة، إلَّا أنَّ نقصًا واضحًا في المرجعيَّة النثريَّة، لم نلمح فيها أمثلة، وهذا لا يمكن أن يكون حكمًا قاطعًا؛ كون ما وصل من شعره غير تام.

٥. كان لواقعة الإمام الحسين عليه السلام أشدّ الوقع على الشاعر وأشعاره، فتخم جلَّ قصائده بهذه الواقعة، بتخرص وختام جميل جدًّا.

٦. لاحظنا تأثُّر هذا الشاعر بالعديد من الشعراء، مضمِّنًا أبياتهم أو شطرًا من هذه الأبيات، ووظَّفها أفضل توظيف، يدلُّ ذلك على تمكُّنه من أدواته وثقافته.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١. أحسن الوديعة في تراجم مشاهير مجتهدي الشيعة، للسيِّد محمَّد مهدي الموسويّ الاصفهانيّ الكاظميّ (ت١٣٩١هـ)، تحقيق ونشر: مؤسَّسة تراث الشيعة، قم، ط١، ١٤٣٧هـ.

٢. الأعلام، خير الدين الزركليّ (ت ١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، د.ت.

٣. أعيان الشيعة، السيِّد محسن الأمين العامليّ (ت١٣٧١هـ)، حقَّقهُ وأخرجهُ وعلَّق عليه: السيِّد حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٥، ١٤٣٥هـ.

٤. إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا البغداديّ (ت١٣٣٩هـ)، تحقيق وتصحيح: محمَّد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، د.ط، د.ت.

٥. بحار الأنوار، العلَّامة محمَّد باقر المجلسيّ (ت ١١١١هـ)، الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٦. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق المرتضى الزبيديّ (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: عليّ شيري، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤١٤هـ.

٧. تكملة أمل الآمل، السيِّد حسن الصدر (ت١٣٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حسين عليّ محفوظ وعبد الكريم الدبَّاغ وعدنان الدبَّاغ، دار المؤرِّخ العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ.

٨. دراسة وصفيَّة لرثاء الإمام الحسين عليه السلام في شعر الشيخ ابن العرندس الحِلِّيّ، أياد نيسي، الدكتور محمود آبدانان مهدي زاده، مجلَّة تراث كربلاء، السنة التاسعة، ع١-٢، ٢٠٢٢م.

٩. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للشيخ آقا بزرگ محمَّد محسن الطهرانيّ (ت١٣٨٩هـ)، دار الأضواء، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

١٠. طبقات أعلام الشيعة: للشيخ آقا بزرگ محمَّد محسن الطهرانيّ (ت١٣٨٩هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ.

١١. العين، للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزوميّ، الدكتور إبراهيم السامرَّائيّ، مؤسَّسة دار الهجرة، قم، ط٢، ١٤٠٩هـ.

١٢. القاموس المحيط، أبو طاهر مجيد الدين محمَّد بن يعقوب الشيرازيّ الفيروزآباديّ (ت٨١٧هـ)، د.مط، د.ط، د.ت.

١٣. لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمَّد بن مكرم ابن منظور (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، د.ط، ١٤٠٥هـ.

١٤. مستدركات أعيان الشيعة، للسيِّد حسن الأمين (ت ٢٠٠٢م)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٥. معجم الشعراء، للمرزبانيّ (ت٣٨٤هـ) تحقيق وتتمَّة: د. عبَّاس هاني الچرَّاخ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ٢٠١٠.

١٦. معجم مؤلِّفي الشيعة، للشيخ عليّ الفاضل القائينيّ النجفيّ، معاصر، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلاميّ، ط١، ١٤٠٥.

١٧. موسوعة طبقات الفقهاء، اللجنة العلميَّة في مؤسَّسة الإمام الصادق عليه السلام، معاصر، إشراف: جعفر السبحانيّ، مؤسَّسة الامام الصادق عليه السلام، قم، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨. وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة): للحرِّ العامليّ، الشيخ محمَّد بن الحسن (ت١١٠٤هـ)، تحقيق ونشر: مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ط٢، ١٤١٤هـ.

١٩. الغدير، الشيخ عبد الحسين الأمينيّ (ت١٣٩٠هـ)، منشورات مركز الغدير للدراسات الإسلاميَّة، النجف الأشرف، ١٤٢٥هـ.

٢٠. البابليَّات، الشيخ محمَّد عليّ اليعقوبيّ، المطبعة العلميَّة، النجف الأشرف، ١٣٧٤هـ.

٢١. شعراء الحِلَّة، عليّ الخاقانيّ (ت١٣٩٩هـ)، دار البيان، المطبعة الحيدريَّة، النجف الأشرف، ١٣٧٠هـ.

٢٢. أدب الطَّفِّ، السيِّد جواد شبَّر (ت ١٤٠٣هـ)، منشورات مؤسَّسة التاريخ، بيروت، ٢٠٠١م.

٢٣. الطليعة من شعراء الشيعة، الشيخ محمَّد السماويّ (ت١٣٧٠هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوريّ، دار المؤرِّخ العربيّ، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٢٤. فقهاء الفيحاء = تطوُّر الحركة الفكريَّة في الحِلَّة، السيِّد هادي كمال الدين، منشورات مكتبة ومطبعة الزين، الحِلَّة، د.ط، د.ت.

الرسائل والأطاريح

٢٥. المرجعيَّات الثقافية في ديوان بهاء الدين زهير، حمزة فليشي وعبد الحق روبي، رسالة ماجستير، جامعة محمَّد خيضر بسكرة، كليَّة الآداب واللغات، ٢٠١٩-٢٠٢٠.